تعرفون الحقّ

"لم نكن يومًا عبيدًا لأحد". هكذا أجاب اليهودُ بامتعاضٍ حين قال لهم يسوع: "تعرفون الحقَّ والحقُّ يُحرّركم" (يوحنّا ٣٢/٨). كيف ذلك وتاريخهم يشهد؟ مِن العبوديّة في أرض مِصر طوال أربعمئة سنةٍ إلى الجلاء في أرض بابل، إلى الهيمنة الهللّينيّة في عقر دارهم، وصولًا إلى الحكم الرومانيّ في زمن يسوع... إنّها تجربة الإنسان في كلّ زمان: عبوديّة الرؤية الخاطئة، عبوديّة مَن لا يريدُ أن يعرف الحقّ، وينسى أن يقرأ التاريخ على ضوء الحقّ. وما هو الحقّ؟ (يوحنّا ٣٨/٨)

يَنقل إلينا الإنجيليّ الرابع هذا الحوار بينما كان يسوع يُعلِّم في الهيكل. ويوحي لنا سردُ النصّ أنّ الخبر لا يزال في إطار عيد المظالّ، حيث يقوم الشعب المؤمن بمسيرة حجٍّ إلى هيكل أورشليم تذكارًا لحدث الخروج الذي أسّسهم شعبًا مُقدَّسًا للربّ. بالخروج من مصر خلقهم الربّ أحياءً من جديد، خلقهم أحرارًا من عمق عبوديّتهم، وأبناءً له أحبّاء. ولكنّ اليهود الذين يُجادلون يسوع يتناسون حدث البنوّة هذه ليفتخروا بكونهم أبناءً لإبراهيم. وهنا أيضًا حقيقةٌ ناقصةٌ ومشوّهةٌ وسطحيّة، ترفض الإعتراف في العمق بمجّانيّة حبّ الله وتجربة الإبن في بيت أبيه. لا بل هنا تحريفٌ للحقيقة لا يَخفى على يسوع، إذ يُعلنهم أبناءً لأبيهم إبليس الكذّاب وأبي الكذّابين، كما يُعلنهم عبيدًا للخطيئة.

وكما بين الكَذِب وعبوديّة الخطيئة وحدةُ حال، كذلك بالمقابل، تتناغم الحرّيّة مع الحقّ: "فمن يعملِ الحقّ يأتِ إلى النور" (يوحنّا ٢١/٣). يوضح يسوع أنّ الذي يثبت في كلامه، يكون حقًّا تلميذًا له يعرف الحقّ والحرّيّة (يوحنّا ٣٢/٨). فالإيمان بيسوع هو الذي يحرّر الإنسان، لأنّ يسوع هو الحقّ. إنّما الإيمان ليس مجرّد إعلانٍ لفظيٍّ لمجموعة عقائد، بل هو الإلتزامُ بإنجيل يسوع، الثباتُ في كلمته، التشبّهُ به، التماهي معه، أي المحبّة إلى أقصى الحدود... حتّى الصليب (يوحنّا ١/١٣).

وإن كان الإنسان خُلِق على صورة الله كمثاله فهو قادرٌ بنعمة الله على معرفة الحقّ ووضع حياته في خدمة الخير، لأنّ الله هو الحقّ المطلق والخير المطلق. لذلك يصبح الحقّ في نظر المسيحيّ أن يبحث عن الله في حياته، وأن يصير إبنًا، ومسيحًا آخر يبني عالم الله في البشريّة، ولو قاده ذلك إلى الصليب. على عكس آدم الأوّل، يعرف المؤمن أنّ الحرّيّة الحقّة تَكمُن في الإعتراف بالله وحده سيّد الإنسان، لا بحرّيّاتٍ كاذبةٍ تستعبده أو تُوْهمه بسيادته على الآخَرِين. لا حرّيّةَ بلا مسيرةٍ في الحقّ، في الله، في اختيار الخير الذي يريده الله في خيارات المحبّة والسلام التي تجعل الإنسان واحدًا مع ذاته، ساعيًا للإتّحاد بالله خالقه.

فما الذي يقيّدنا إذًا وأين نبحث عن حرّيّتنا؟ أنعي أين تكمن سلاسل عبوديّتنا؟ أنقبل دعوتنا كشهودٍ للحقّ في كنيسةٍ نبويّةٍ مَدعُوَّةٍ إلى الحرّيّة والتحرير من نير الكذب؟

أعطنا يا ربّ قلبًا قابلًا للتعلّم منك – أنت الحقّ، للتتلمذ لك – أنت الحرّيّة، لعلّنا نعترف بالله أبًا لنا وسيّدًا، فلا ننقادَ لأسياد هذا العالم.